

تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب
(القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)
للداعي إدريس عماد الدين (تـ 872/1468)

تحقيق : محمد اليعلاوي
(ط . دار الغرب الإسلامي) ،
بيروت 1985 (742 صفحة)

تقديم : الحبيب الشاوش

لا تزال المصادر الخاصة بدراسة تاريخ المغرب العربي أو التاريخ الإسلامي في العصور القديمة بإفريقية بوجه خاص ، قليلة أو مغمورة . ولولا ظهور بعض الأطروحات والدراسات العلمية في السنوات الأخيرة ، لبقيت الإحاطة بهذا التاريخ في كافة عهوده خارجة عن الإمكان أو من باب المحال (1) . ومن أهم المصادر التي توفّر للباحث إمكانية الإلمام ببعض هذه

(1) من الأطروحات نذكر بخصوص عهد الأغالية : لمحمد الطالبي : الإمارة الأغلبية (184 - 296 هـ/800-909 م) : التاريخ السياسي . باريس ، 1466 . وبخصوص عهد الفاطميين : لفرحات الدشراوي : « الخلافة الفاطمية بالمغرب - باريس ، 1970 .

العهود المجيدة من تاريخ مغربنا العربي ولا سيما عهد الدولة الفاطمية يجدر أن نذكر في طليعتها « كتاب عيون الأخبار » للداعي إدريس عماد الدين (المتوفي سنة 1468/872)، الذي عني بتحقيق السبع الخامس وجزء من السبع السادس منه الأستاذ محمد اليعلاوي حرصا منه على إمداد الدارسين والباحثين بمصدر خصّصه للفترة الفاطمية من تاريخ المغرب العربي الممتدة طيلة عصور الخلفاء الأربعة : المهديّ والقائم والمنصور والمعزّ، أي من بداية الفاطميين بالمغرب والبذرة الأولى التي زرعها أبو عبد الله الداعي - في مجال الدعوة الشيعية بهذه الربوع ، إلى هجرة المعزّ إلى القاهرة ووفاته بها .

ويعتبر كتاب « عيون الأخبار » من أهم المصادر الشيعية الخاصة بالخلفاء الفاطميين بالمغرب ومصر إلى جانب مصادر أخرى ذكرها المحقق في فهرس مراجع التحقيق .

وكان الدكتور مصطفى غالب قد عُني بتحقيق الأجزاء الرابع إلى والسادس من « كتاب عيون الأخبار » - وتسمى بالأسباع - إلا أن هذا التحقيق كان دون المأمول بل خيب الأمل نظرا لكثرة الأخطاء الواردة في كل صفحة من هذه الأجزاء وهي أغلاط متنوعة وما هي بالأغلاط المطبعية فضلا عن كون هذا المحقق أي الدكتور مصطفى غالب لم يَسعَ إلى ضبط حقيقي للنص وتعريف بالإعلام والمواضيع ، ومقابلة رواية الداعي للأحداث برواية بقية المؤرخين (2) ولا سيما مؤلفي الجانب الغربي كأبن حماد وابن عذاري وآبن

(2) انظر ص ص 797 - 803 - ومن هذه المصادر : « افتتاح الدعوة » للقاضي النعمان ، تحقيق وداد القاضي ، بيروت 1970

- نفس المصدر ، تحقيق فرحات الدشراوي ، تونس 1975 ومنها : سيرة جعفر الحاجب ، نشر إيفانوف Ivanov مجلة كلية الآداب ، القاهرة 1936 - و « بيرة الأستاذ جوذر » لمنصور العيزي الجوذريّ ، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة د . ت . - إلى جانب مصدر هام آخر هو : « المجالس والمسائرات » تحقيق محمد اليعلاوي وإبراهيم شيوخ والحبيب الفقي ، تونس 1978 .

خلدون ، ومناقشة التواريخ والأحكام التي يثبتها المؤلف وتبناها ، وتبرير الاختيار بين قراءتين مُمكنَتين ما دام الناشر يعتمد نسختين مختلفتين . ومما خيب الظن أيضا أن لا وُجُودَ لفهارس مفصلة مدققة مرتبة ترتيبا محكما يوفر الوقت للقارئ ، الباحث عن علم بعينه أو موقع مخصوص « . . . الخ . . . » (2) .

فجاء كتاب « تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب » بتحقيق محمد اليعلاوي ليسد فراغا كبيرا في باب التحقيقات العلمية القيّمة التي تشفي غليل كل متطلع إلى الإلهام الواسع الدقيق بتاريخ الدولة الفاطمية بإفريقية .

ويتضمن هذا الكتاب السبع الخامس وجزءا من السادس من « عيون الأخبار » للداعي إدريس عماد الدين ، وهو داع يعني تقلّد رتبة « الداعي المطلق » في الدعوة الفاطمية في فترتها اليمينية بعد انقراض الدولة من مصر ، تولى زعامة المذهب من سنة 832/1428 إلى وفاته سنة 872/1468 (3) .

وقد اعتمد الداعي إدريس عماد الدين على أنواع ثلاثة من المصادر تعرض لها المحقق تفصيلا (4) منها ما هو شائع معروف ومنها ما هو مخزون مجهول ومنها ما هو مفقود .

وتتكون مادة كتاب « تاريخ الخلفاء الفاطميين » - الذي حرص محققه على أن يكون خاصا بالفترة المغربية لنفوذ الفاطميين ، من أخبار الخلفاء الفاطميين الأربعة الأول وتنتهي بوفاة المعز لدين الله الفاطمي ، مع انصراف على حدّ تعبير المحقق « إلى شيء من أخبار المشرق كشوء الدعوة باليمن وخروج المهديّ من الشام وفتح جوهر لمصر وحروبه مع القرامطة » .

(2) انظر مقدمة الكتاب بتأليف المحقق ص ص 8 - 9 .

(3) انظر ص 15 من المقدمة .

(4) نفس المصدر ص ص 15 - 16 .

وقد اعتمد المحقق فيما يتعلّق بالسبع الخامس (5) من الكتاب على نسختين مصورتين منها نسخة المكتبة المحمّدية الهمدانية التي اتخذها أصلاً للتحقيق وأثبت أرقام صفحاتها في الطّرة وأحال في كلّ الهوامش وكلّ الفهارس إلى هذه الأرقام الجانبية . وقد عرّفها بعلامة (هـ) . أما النسخة الثانية وقد عرفها بعلامة (ر) فهي التي أمده بها الدكتور رحمة الله ، وقد حرص المحقق على نقد هاتين النسختين مبرزاً ما فيها من خصائص إيجابية وأخرى سلبية . ولم يهمل المطبوع من المراجع فأحال إلى صفحاته مسبقة بحرف (ط) وأدرجها كذلك في متن الكتاب كما لم يهمل مقتطفات من السبع الخامس حققها الأستاذ فرحات الدشراوي ومهد لها بمقدمة مفيدة تبيّن « ما لهذه الرواية الشيعية للأحداث من قيمة وذلك بإكمالها وتوضيحها وتنقيحها لرواية المصادر السّنية خاصة في تفاصيل ثورة أبي يزيد (6) ، وهي فقرات من أخبار القائم والمنصور ، ونظراً لاقتصارها - إذن - على قسم فقط من الكتاب ، فقد ألحق الأستاذ اليعلاوي الإحالة إليها بالطّرة ، مسبقة برمز (دش) ونبه إليها في المتن بنجمة (*) .

هذا فيما يتعلّق بالسبع الخامس .

أما السبع السادس فقد اعتمد فيه المحقق على النسخة الوحيدة التي أمده بها الدكتور رحمة الله ونظراً لانفرادها فهو لم ير فائدة في تمييزها بحرف خاص . لكن قابلها أيضاً بالمطبوع وأدرج الإحالة إلى المطبوع في متن الكتاب ، تاركاً الطّرة لأرقام المخطوط المعتمد ، وقد ميّزها عن أرقام السبع الخامس بعلامة : 2/ ، متبوعة برقم الورقة لا الصفحة ، وقد حرص المحقق على أن يقدّم للقارئ نصاً واضحاً مفهوماً فقابل لهذا الغرض رواية المؤلف

(5) ينتهي هذا السبع بوقاة المنصور بالله .

(6) انظر ص ص 10 - 11 من المقدمة .

برواية غيره ، ولا سيما ما ينقل منه مباشرة ككتب القاضي النعمان وديوان ابن هانيء وسيرة جودر والنقول كثيرة جدًا وربما طفت - كما قال المحقق - في السبع السادس على كلام المؤلف نفسه « وهذا من عيوب الكتاب وإن كان له من جهة أخرى فائدة غير منتظرة ، وهي أنه يساعدنا على تصحيح كثير من قراءتنا في المجالس والمسائرات ، وقراءات غيرنا في سيرة الأستاذ جودر مثلاً . »

وقد نبهنا المحقق بكل تواضع إلى أنه استعصى عليه فهم جملة وتصويب سياق أشار على القارئ بذلك حتى يعمل رأيه معه .

أما فحوى الكتاب فيتضمن سبعة فصول :

1الفصل الأول : وهو بعنوان « البشارات والإشارات بظهور المهدي بالله » فيبتدىء بالحديث عن تنبؤ الرسول (صلعم) بظهور المهدي ويختم بتنبؤ الشعراء بالمهدي .

الفصل الثاني : « ظهور دعوة المهديّ باليمن والمغرب » وينتهي بهجرة جعفر بن منصور اليمن إلى إفريقية .

الفصل الثالث : « ظهور الدعوة بالمغرب » وابتدىء بظهور الداعي أبي عبد الله وتعلّمه طرق الدعوة عن منصور اليمن وينتهي بدخول الداعي رقادة (رجب 25/296 مارس 909) والحديث عن المروزيّ أوّل قاضٍ شيعيّ بالقيروان ومناظرة أبي العباس للفقهاء .

الفصل الرابع : خاص بخلافة المهديّ ، ابتداء بالحديث عن مولده وتربيته وانتهاء بوفاة (15 ربيع الأول 322/3 مارس 934) .

الفصل الخامس : « خاص بخلافة القائم بأمر الله » وابتدىء بالحديث عن نسبه وعلو أخلاقه وطيبة نفسه وينتهي بوفاته (14 شوال 19/334 ماي 946) .

الفصل السادس : « خلافة المنصور بالله » وابتدىء بالحديث عن كتمان وفاة القائم وتفويض أمر الدولة إلى جودر الأستاذ ويختم بوفاته (آخر شوال 19/334 مارس 953) .

الفصل السابع : « خلافة المعز لدين الله - من بداية عهده إلى « رسالة بعث بها إلى حليم ابن شيبان يذكر فيها تصدي الأسطول للروم ، ونُثني على جهاد الداعي بجزيرته » .

ويختم الكتاب بقسم خاص بخروج القائد جوهر إلى مصر سنة 358 هـ .

وتتمثل قيمة هذا الكتاب (7) - فيما يخص تاريخ المغرب - فيما ينقله المؤلف عن مصادر مفقودة « لا نستبعد أن تكون مصادر سنيّة أو على الأقل - كما يقول المحقق - معتدلة في تشيعها إن كانت شيعيّة . وعرضه لثورة أبي يزيد - بفضل ما يمتاز به من تماسك وتسلسل - هو إلى حد الساعة أوفى رواية لهذه الفتنة العظمى التي كادت تقضي على الدولة الجديدة ، ويمتاز هذا العرض بوفرة التفاصيل بشأن محاصرة المهديّة ، ومحاصرة المنصور للنائر بجمال المعاضيد بعد ملاحقة طويلة شاقّة ، ومما يستقطب اهتمام القارئ الدارس لهذا الكتاب ، المناظرة المؤثرة - وإن كانت مزينة مفتعلة - على حدّ تعبير المحقق - في بعض فقراتها - بين النائر المغلوب والخليفة المنتصر ، كما يسترعي عنايته

(7) انظر المقدمة ص ص 17 وما بعدها .

التصدّع الذي أصاب صفوف كتامة - الأنصار الأولين السابقين - وكذلك ما يديه كلّ إمام جديد من احتياط وتكتّم عند وفاة الإمام السابق له . وكل هذه التفاصيل على جانب من الطرافة والأهمية التاريخية الكبيرة .

وقد تعرض الأستاذ اليعلاوي إلى نقد الكتاب مبرزاً ما يقدّمه لنا من فوائد كذكر المصادر التاريخية التي لم نسمع بها من قبل (8) فتقوى رغبتنا في العثور عليها والاستفادة منها (9) . كما تعرض لنقائضه مثل الإفراط في النقول والاضطراب في ذكر التواريخ إذ تارةً يذكرها المؤلف خاطئة وطوراً يدقّقها بعناية كبيرة وتارةً أخرى ينساها ، ومن هذه النقائض ما أشار إليه المحقق من طغيان اللهجة الخطابية والتعبير الملحمي المفتعل على المؤلف إذا ما ذكر انتصار للأئمة ، وإغراقه في السجع الركيك المصطنع .

وبخصوص نزعة المؤلف الشيعية فهي ظاهرة لا غبار عليها ، لا يتردّد صاحبها في إبرازها في عدّة مناسبات نذكر منها على سبيل المثال إشارته إلى خلفاء الفاطميين ووصفه إياهم بأئمة الهدى ، وإزراؤه بالعباسيين والخط من شأنهم عند ذكرهم إذ يقول في هذا السياق :

ولم نقصد ذكرهم (أي خلفاء بني العباس) فنستقصي أوائلهم وأواخرهم . . . وإنما قصدنا ما « ابتلاههم الله به ، ممّا يسّر وقضى ، وأتاح لأولائه وبني نبيه أئمة الهدى وشموس الحق الطالعة من المغارب الذين أختبت

(8) نفس المصدر ص 18 .

(9) مثل السيرة الكتامية لحيدرة بن محمد بن إبراهيم الكتامي ، « وكثر الأخيار في السير والأخبار » لإدريس ابن علي الحسني ، و« سيرة جوهر » للحسن بن زولاق ، وتاريخ جهور بن علي الهمداني . .

اللّٰه بهم ذكر كل مناصب ، فتضععت دولة بني العباس ، ولم يقيم لهم فيها أساس (10) .

وفي حديثه عن أبي فراس الحمداني لا يفوته أن ينوّه به وبشيّعه ، بقوله :

« [أبو فراس الحمداني] فارس الحرب الصنديد وناظم الشعر المجيد وكان أبو فراس شيعيًا محبًا لآل النبيء من فاطمة الزهراء وأمير المؤمنين عليّ . كما تبرز هذه النزعة الشيعية للمؤلف في صلاته على النبيء وعلي في آن واحد كأن يقول (11) :

« . . . وصلى الله على محمّد نبيّه وعلى عليّ وصيّّه وعشرتهما المكرمين المفضلين . . . »

وقد حرص المحقق - في مقابلة الروايات للحدث التاريخي - بين مصادر شيعية وأخرى سنّية مثلاً - على وضع الخصمين وجها لوجه ولم يكتف بذلك بل تجاسر على إبداء الرأي فانتقد غلوّ هذا وتحامل ذاك ، وبذل جهداً كبيراً في التعريف بالأشخاص والأماكن ، معتمداً على ما أمكن الحصول عليه من مراجع قديمة ومعاصرة . وقد نبه إلى ما لم يوفّق إلى ضبطه والتعريف به ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى تخريج الحديث النبويّ ، والأبيات ، فقد « وفق في البعض ووقف في البعض الآخر » .

وقد حرص المحقق كذلك على ضبط فهارس عديدة هامة منها فهرس للقرآن حيث رتبت الآيات حسب الحروف الهجائية لأوائها وفهرس للحديث ، وقد نبّه في الأثناء إلى المجهول منه ، وفهرس للقوافي وآخر لإعلام

(10) انظر ص 648 من الكتاب .

(11) انظر ص 345 من الكتاب .

الناس والمفاهيم والفئات وآخر للأماكن . ثم للكتب المذكورة في المتن ، علاوة على مراجع التحقيق وفهرس للخرائط .

ومهما يبحث الدارس عن هنة أو أخرى فلا يكاد يعثر - ما عدا الأخطاء المطبعية - إلا على النزر القليل الذي لا يحيط في شيء من عمل التحقيق العلمي الدقيق الذي امتاز به الكتاب ، من ذلك مثلاً في فهرس الأماكن ، إشارة إلى أن « لمطة » توجد بصفحة 343 ، إلا أنها لا توجد هناك ولربما وقع الخلط - عند الطبع - بينها وبين « بكة » . وهي الموجودة بتلك الصفحة .

وفي الجملة فهذا الكتاب يوفر للدارسين الباحثين أداة عمل نفيسة هي مرجع متكامل ومكمل لأمهات المصادر الهامة على قلتها والخاصة بتاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب وما امتازت به عهودهم من قلاقل وفتن وما لقيه دعاة الشيعة من محن في محاولة نشرهم للمذهب الجديد بربروع إفريقية .

الحبيب الشاوش